

على المحبوسين في الماضي أن يفهموا: زرياب لم يسقط الأندلس

أشهر موسيقي عربي يتعرض إلى أسوأ المحاكمات الأخلاقية



الفنان الذي غير الموسيقى العربية

جديدة حتى في الأكل واللباقة، حيث اشتهر بإقامة الولائم الفخمة وتنسيقها وترتيبها وكان ذلك كله النواة الأولى في فخامة قصور ملوك الأندلس.

ويقول مدعو لعنة زرياب كما جاء في مقالة الباحثة بلحنوف إنه "صرف الناس عن دراسة القرآن وسماع حكايات الصحابة إضافة إلى انتشار مجالس المجون والطرب والرقص".

وهذه الحجج الأخلاقية مردود عليها ببساطة، فالموسيقى التي يراها المنغلقون أداة مجون، هي في الحقيقة أداة انفتاح ووعي وانفتاح ليست فقط فنا وإبداعا، إنها تحقيق لإنسانية الإنسان، فكما يقال "وحدهم الأشرار لا يخنون".

ثم إن ما طرأ في الأندلس بعد زرياب من رفاه وتطور حضاري كبير، كان جليا لا شك فيه، حتى أن العرب إلى اليوم يعتبرونها "الفرديوس المفقود"، ولم يؤثر في الأندلس إلا الانقسام الداخلي، والتعصب الطائفي الذي لاحق الفلاسفة وأصحاب الفكر، والتهديد الخارجي، الذي أضعف الأندلس وقسمها إلى دويلات صغيرة متناحرة، ما أدى إلى سقوطها في النهاية وتشرذم ناسها من المسلمين واليهود.

ربما فعلا شهدت الأندلس مغالاة في اللهو من قبل حكامها وأعيانها، لكن لا يد لزياب في هذا، فكل ما أتاه الفنان هو إحداث ثورة في الموسيقى العربية، وتأسيس مسارات جديدة ومختلفة كليا لها.

شهدت الأندلس أبرز مظاهر الحضارة الإنسانية من خلال الفن والفكر والأدب، تطورت فيها الشعر وولدت فيها الموشحات، وعرف المجتمع ثقلة كبيرة، فيها عرفنا قصص الحب، والاكتشافات العلمية، في الأندلس عرف الشعر تحولات كبرى مع الشاعر الشهير ابن زيدون وإبى البقاء الرندي وقصائد الولادة بنت المستكفي. وفيها ولد الفكر الفلسفي في أوج عبقريته مع ابن رشد، ومن قبله ابن الكتاني وابن مسرة، وأغلبهم لاحقون لزياب.

لقد ساهم زرياب في جعل الموسيقى متاحة للجميع، حيث لم يخصص عمله وموهبته ومعارفه فقط للأعيان، بل تتلمذ على يده الكثير من الموهوبين من الأندلس ومن الوافدين من خارجها من الذكور والإناث، فكما كانت الموهبة وحدها سبيله للمجد، فقد آمن بها طريقا لكل من يبتغي أن يحقق ذاته في الفن. كما أنه أدخل عادات اجتماعية

افتتاحه لمعهد موسيقي وإضافته الوتر الخامس للعود بعد أن كانت أوتاره أربعة، وإضافة مقاصد لم تكن معروفة قبله، وفي فترة وجيزة خلق زرياب حركية موسيقية كبيرة لم تشهد الأندلس لها مثيلا.

وساهمت ثقافة زرياب الموسيقية وحكاياته التي يحملها عن بلاد المشرق في أن يكون الجليس المحبب لأعيان البلاد وحكامها، الذين أدخل إلى مجالسهم الموسيقى والطرب وحتى عادات المجالس الفخمة التي اعتاد عليها الخلفاء.

لكن ووفق الباحثة آسيا بلحنوف، فإن زرياب رغم ما قدمه للفن والثقافة كان في رأي عرب كثيرين بمثابة اللعنة على الأندلس، فكيف ذلك؟

سبب الدمار

يعتقد الكثير من المسلمين أن زرياب ساهم في سقوط الأندلس وتقهقرها، ففي رأيهم فقد انطلقت معه مجالس السمر والطرب واللهو، وانصرف القائمون على شؤون البلاد إلى ما لا ينفع الرعية، وما يعدهم عن المجد ورسالة الدين الإسلامي وغيرها من الادعاءات.

الموسيقى العربية مثلت أوج الحضارة

مقطوعته الموسيقية وقف الرشيد مُبديا فرحته بالصوت الشجي الذي أطرب مسمعه وراح يوصي الموصلي بتلميذه خيرا، فهل عمل الموصلي بوصية الخليفة؟

حينها بدأت الغيرة تدب في قلب المعلم، وتغير كل شيء، اندفعت نوازع الشَّرِّ فيه خوفا من أن يأخذ زرياب مكانته عند الخليفة، فطلب من تلميذه مغادرة بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، وأن يمضي إلى الغرب يلتمس حظه هناك، وإن لم يفعل كان مصيره الموت، ولأن يد إسحاق كانت طويلة في بغداد، لم يكن لزياب وهو الغلام الأسود إلا أن يخاف ويفر على عجل متجها نحو بلاد الأندلس.

وربما كان لانتقال زرياب إلى الأندلس التأثير الكبير فيه من خلال تعرفه على شعراء مختلفين وعلى بيئة ونمط حياة أكثر انفتاحا، وقد أثرت فيه الأندلس كما أثر فيها.

وتذكر الباحثة كيف جاء زرياب إلى الأندلس فأرا من تهديد معلمه وكيف سر في رحلته بالكثير من الأمصار وفي كل واحد منها كان يترك أثره الفني هناك، وصولا إلى تمكنه من دخول الأندلس وإنجازاته فيها حيث تذكر

تقول "اشتاقت نفس الرشيد إلى سماع ما تطرب له الأذن، فدعا إلى مجلسه نادم إسحاق الموصلي الذي رأى أن يأخذ معه تلميذه المتفوق زرياب وهكذا ينال رضا الخليفة وتزيد مرتبته عنده فيغدق عليه بالهدايا والعطايا والأموال، ولما حضر المعلم وتلميذه بلاط الخليفة سأل الرشيد زرياب: هل تجيد الغناء؟ وقد أجاب الفتى الأسمر الإجابة عندما قال: نعم، أحسن منه ما يُحسِّنه الناس، وأكثر ما أحسنه لا يُحسِّنه الناس، ممَّا لا يُحسِّن إلا عندك، ولا يُدخِرُ إلا لك، فإن أدبْتَ غنيتك ما لم تسمع أدنَّ من قبل؟"

وتضيف أن الرشيد حمَّس لسماع زرياب خاصة وأنه لمس في رده حسن الأدب وفصاحة اللسان، فطلب منه أن يغني ويعزف على عود أستاذه، لكن زرياب استأذنه ليعزف على عوده الخاص، وبعد أخذ ورد سمح له الخليفة بالعزف على عوده الخاص الذي صنعه زرياب بنفسه، وكان أخف من عود أستاذه.

وقد طربت مسامع الحاضرين وبُهِت الرشيد في صوت الفتى الأسمر الذي لم يكن أحد غير معلمه يعلم أنه يملك ذلك الصوت العذب، وبعد أن أنهى زرياب

ما زالت شخصية زرياب ملهمة للعديد من الموسيقيين والفنانين العرب، الشاب الأسمر الذي خاض رحلة استثنائية من الشرق إلى الغرب، لم يكن مجرد فنان موهوب، بل كان أكثر المؤثرين في تاريخ الموسيقى والمجتمع العربيين، ولكن البعض اليوم يحاكم زرياب بمعطيات أخلاقية غريبة ومستهجنة، إلى حد أن بعضهم ما زال إلى الآن يتهمه بأنه سبب سقوط الأندلس.



محمد ناصر الموهلي كاتب تونسي

لا شك أن زرياب سيبقى أيقونة الموسيقى العربية، حتى ولو مر على زمانه 12 قرنا، حيث لم يترك موسيقى ما تركه زرياب من تأثير طليعي لا في الفن فحسب، بل وفي دوائر السياسة وفي ميولات المجتمع الذي تغير معه.

الاسم الحقيقي لزياب هو أبو الحسن علي بن نافع، واطلق عليه اسم زرياب وهو اسم طير أسود اللون عذب الصوت من الموصل، المدينة التي ولد فيها سنة 777 ميلاديا (حسب تقريبات المؤرخين)، واستوحى هذا اللقب من جمال صوته.

رحلة الفنان

بدايات زرياب كانت سرية حيث تتلمذ في الخفاء على يد إسحاق الموصلي، وهو مغني بغداد الشهير، الذي نادى الرشيد والمامون والمعتمد والواثق، لكن المعلم لم يكن يعلم أن تلميذه الذي كان يعلمه فنون الموسيقى سيتفوق عليه وهو في رحاب أمير المؤمنين هارون الرشيد، وبالمقابل لم يكن زرياب وهو الشاب الأسمر القليل يعتقد أنه سيحضر مجلس الرشيد يوما، إلى أن حدث ذلك وتغير مصير الفتى الموهوب كليا.

مع زرياب شهدت الموسيقى العربية تطورا كبيرا وقد آمن بالموهبة وابتكر أساليب فنية وموسيقية تعليمية جديدة

تؤرخ الباحثة آسيا بلحنوف في بحث لها بعنوان "زرياب فنان الأناقة والإتيكيت كيف كان سببا في سقوط حكم المسلمين للأندلس" لبدايات زرياب،

أم كلثوم وفيروز تلتقيان في مهرجان سماع للإنشاد والموسيقى الروحية في القاهرة

التي تعتبر الإنشاد ركيزة دينية حيث استخدم المسيحيون الموسيقى في طقوس العبادة والصلوات في الكنيسة، وذلك من خلال أداء فردي أو جماعي في شكل جوقة.

الدورة 13 لمهرجان «سماع» تستضيف لبنان

ضيف شرف وتشهد مشاركة نحو 20 فرقة من عشر دول عربية وأجنبية

وتأسيس هذه الطقوس ليس جديدا، فهي تعود إلى القرن الرابع إثر عصر اضطهاد المسيحيين، حيث قام آباء الكنيسة بتأسيس نظام للطقوس الدينية مؤلف بشكل أساسي من الأناشيد التي يقع التردد بها في ما يسمى بالتراتيم، وذلك في المناسبات المختلفة طوال العام، وإضافة إلى الموسيقى تتكون الأناشيد إما من أشعار من الشعر الغنائي أو من العهد القديم وكل كنيسة تضع موسيقى وأناشيد خاصة بها.

يجمع الإنشاد الديني بين مختلف الأديان، وهو مساحة كبرى للتسامح، ولكنه أيضا بات مجالاً للابتكار الموسيقي، ولخلق فن روحي يرقى بالإنسان إلى مراتب عليا من التسامح والتعايش القائم على المحبة.

(زاوية). وكانت تعرف بدورة الصوفية بالقاهرة يقصدها الصوفيون الوافدون إلى مصر وأجرى عليها أوقافا سنة 569هـ/1173م، وهي تعد أول خانقاه أسست بمصر ولقب شيخ هذه الزاوية بشيخ الشيوخ. وقد انتشر في الآن نفسه بمختلف أقطار العالم العربي الإسلامي، ولاسيما ببلاد الشام والعراق وشمال أفريقيا، أمر الزوايا والطرق الصوفية والرياطات التي تاوي الزهاد والعباد وكل من أثر الحياة الروحية والتأمل.

وقد ارتبط الإنشاد الديني بشكل كبير بالصوفيون نظرا إلى أنهم أكثر من طور فيه وقدم منجزا مؤثرا سواء من حيث الكم أو الابتكار في النصوص والألحان والأداء والرقصات الموسيقية، فقد كانت الطرق الصوفية تقوم بواسطة الإنشاد الجماعي والمستمر بالمساهمة في تشكيل وإعادة تشكيل الذاكرة السنية المشتركة والمخيال الإسلامي الجمعي.

الإنشاد الديني رحلة فن روحي وقد مر بمرحلت عديدة عملت على تطوره حتى أصبح منافسا قويا لفنون أخرى، وخرج من عباءته الإنشاد الصوفي من القوالب الإنشادية التي يبتكرها الشباب لمواكبة عصر التكنولوجيا الحديثة مثل فرقة "الحضرة" المصرية.

كما لا يعتبر الإنشاد الديني حكرًا على المسلمين، فهو موجود في الكثير من الديانات الأخرى مثل المسيحية

تاريخ الإنشاد الديني على جنوره التي تعود إلى عهد الفراعنة، فإن أولى حلقات الشطح والسماع والإنشاد الديني عربيا قد ظهرت منذ أواخر القرن الثاني للهجرة ببغداد كما يذكر ذلك المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون نقلا عن التوخي أبي علي، في حين يرجع ماسينيون نفسه مجالس الذكر إلى سنة 120هـ/738م أي مع بدايات التصوف الإسلامي.

لكن الظهور الحقيقي لحلقات الذكر ومجالس الإنشاد الصوفي كان بعد عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي يعزى إليه بعث أول خانقاه

على وقع إيقاعات حديثة تعبر عن روح الشباب وبلغات عربية وأجنبية، وهو ما يعتبر نوعا جديدا من الأغاني والأناشيد الدينية بهدف رسم صورة شفافة وحقيقية عن الدين الإسلامي بعيدة عن صورة التطرف والإرهاب التي التصقت به في السنوات القليلة الماضية.

وتقدم هذه الفرق تنوعا موسيقيا كبيرا، حيث تستخدم إيقاعات سريعة تشبه الأغاني العصرية بهدف التواصل مع الشباب من الجنسين في العالمين الشرقي والغربي.

وإن كانت الكاتبة المصرية مروة البشير، تلقي الضوء في دراسة عن



الإنشاد فن يسمو بالإنسان

القاهرة - يحل لبنان ضيف شرف الدورة الثالثة عشرة لمهرجان «سماع» الدولي للإنشاد والموسيقى الروحية بالقاهرة، الذي ينطلق هذا الأسبوع بمشاركة نحو 20 فرقة من عشر دول عربية وأجنبية.

وتشارك في المهرجان أيضا كل من روسيا وأرمينيا واليونان وإندونيسيا والصين وجنوب السودان والسودان وفلسطين ومصر مع مشاركة خاصة لفرقة سورية مقيمة في القاهرة.

ورغم توافد الفرق المختلفة على المهرجان من أنحاء العالم سنويا ستقتصر المشاركة في هذه الدورة على فرق تشكلت من الجاليات المقيمة في مصر، وذلك بسبب ظروف السفر جوا نتيجة جائحة كورونا.

وقال مؤسس ورئيس المهرجان انتصار عبدالفتاح في مؤتمر صحفي، إذ إن دورة هذا العام "استثنائية" إذ قابلتها العديد من العقبات والمصاعب، لكن إصرار فريق المهرجان على عدم توقفه جعلهم يبذلون أقصى ما في وسعهم بأقل الإمكانيات المتاحة.

وأضاف أن أبرز هذه العقبات كانت عدم تمكن أي من الفرق المشاركة من الحضور للقاهرة والاستعاضة عنها بفرق من الجاليات المقيمة في مصر "لكنني استعنت لهذه الفرق وأؤكد أنها ممتازة وستكون خير ممثل لبلادها".

يقام افتتاح المهرجان الذي تشرف عليه وزارة الثقافة بالتعاون مع وزارة